من خطاب التنظير إلى سؤال الآليات - في كيفية اشتغال نقد النقد في الخطاب الجزائري المعاصر-

From theorizing discourse to the question of mechanisms - on how criticism works in contemporary Algerian discourse

د. زين العابدين حمبلي*

جامعة العربي بن مهيدي-أم البواقي (الجزائر)

hamblizinou1@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/07/17	تاريخ التقييم: 2022/12/07	تاريخ القبول: 2023/06/23

الملخص:

لمّا كان الإبداع هو لغة الوجود الخالدة، الذي تشتغل عليه لغة النقد الأدبي في محاولة لفهم أغواره وكشف أسراره، وجدت هناك متابعة لهذه الحركة النقدية، التي انصب انشغالها على محاورة ومراجعة نصوصها، تنظيرا وتطبيقا، فحصا وكشفا وتعرية للمنطلقات المعرفية، والأدوات المنهجية، والشروط التداولية لهذه العملية الميتانقدية.

تسعى هذه الورقة البحثية إلى توضيح بعض الجوانب التنظيرية والإجرائية لخطاب نقد النقد في المدونة النقدية الجزائرية المعاصرة، من خلال الإجابة عن إشكالية مركزية يمكن صياغتها كالآتي:

ما هي رؤية واهتمامات النقاد الجزائريين بهذا الحقل المعرفي؟ وهل استطاعوا تقديم آليات منهجية، واصفة وشارحة للكتابات النقدية المعاصرة؟

كلمات مفتاحية: النقد الأدبي، نقد النقد، التنظير، الآليات، الخطاب النقدي الجزائري المعاصر.

Abstract

Since creativity is the eternal language of existence, on which the language of literary criticism operates in an attempt to understand its depths and reveal its secrets, I found there follow-up to this critical movement, whose preoccupation was focused on dialogue and review of its texts, theorizing and application,

examination, detection and exposure of cognitive premises, methodological tools, and deliberative conditions for this Almitanqdip process.

This research paper seeks to clarify some theoretical and procedural aspects of the criticism discourse in the contemporary Algerian monetary code, by answering a central problem that can be formulated as follows:

What are the Algerian critics' vision and interests in this field of knowledge? Were they able to provide methodological mechanisms, describing and explaining contemporary critical writings?

Keywords: Literary criticism, criticism of criticism, theorizing, mechanisms, contemporary Algerian critical discourse

*المؤلف المراسل.

. مقدمة :

إنّ الانخراط في عملية وصف وتعليق وتقويم للمدونة النقدية المعاصرة هوفي الحقيقة من صميم عملية نقد النقد، يأتي هذا المسعى من أجل التعرية والكشف عن كيفية اشتغال الأنساق المعرفية التي تتحكم في مسالكها ودروبها، وما تولد عن هذه المعرفة المنتجة من مفاهيم وتصورات، أنارت فيما بعد طريق المناهج والنظريات النقدية، لذلك فإن معاينة هذا النسق أو ذاك، وفهم المتغير منه على مستوى الرؤية والمفهوم والمنهج، سيسهل من عملية الإصلاح النقدي خاصة لواقع الفكر العربي المعاصر.

تأتي –إذن- أهمية البحث في نقد النقد من الحاجة الماسة إلى تأسيس فكر نقدي عربي مبني على أصول نظرية وعلمية واضحة، فكر مؤسس على قيم ثقافية وفلسفية متنوعة تعيد الاعتبار للذات العربية كذات مفكرة ومبدعة تساهم في إثراء الحركة الفكرية الإنسانية، ذلك أن الميل الواضح للنقد العربي واغترافه من الآخر/ الغرب، وارتدائه لعباءته الفكرية، جعلت منه عملا تابعا لمعيارية الآخر، في حين سجل التراث النقدي العربي وباعتزاز الجهود النقدية العربية الجليلة" ولتحقيق هذه الغاية أي المساهمة في تأصيل نقد عربي، وجدتنا نبحر في عوالم الفكر النقدي دون أن تكون لنا ضوابط علمية متعارف عليها تسمح لنا برسم خطوط العرض والطول، وكشف الاتجاهات، وحساب التوقعات، ولهذا ارتأينا أنه لا يمكن للأداة النقدية أن تستجيب للطموحات ما لم تكن بدورها خاضعة لبوصلة واضحة، ولصرامة نظرية تضع الاستراتجيات وتحدد الثوابت والمنطلقات" [1]

إنّ المتابع للساحة النقدية العربية عموما وفي الجزائر خصوصا، يجد أنها تكاد تخلو من كلام منظم حول نقد النقد، إلا في بعض الجهود التي ستحاول هذه الورقة البحثية رصدها، سواء من جانب التنظير أو التطبيق، ولعل الباحث المبحر بمساهماته في التفكير في النقد، سيجد أن أغلب الدراسات تمارس بشكل أو بآخر نقد النقد، بحيث تتناول النقد الأدبي كموضوع لها، فتمارس عليه المعرفة العالمة،

معرفة على معرفة، لكن دون أن تلتفت إلى ذاتها لتعرف بنفسها، وتكتفي بالوجه التطبيقي للمعرفة الممارسة، فكان من نتائج ذلك استفادة النقد الأدبي من الدراسة، بينما يظلّ نقد النقد خارج دائرة السؤال.

1- نقد النقد الحدود والمفاهيم:

ليس من السهل الانخراط في الحديث عن نقد النقد، أو هو بالأمر المرغوب فيه، فليس هناك دائما -لدى البعض- استعداد للاستماع إليه، فقد لاحظ **تودروف** من قبل أن الحديث عن نقد النقد " علامة على تفاهة الأزمنة، فمن ذا الذي بإمكانه أن يجد فيه فائدة ترجى"[2] ، والواقع أنه لا أحد غدا يحفل بما يقوله النقد ناهيك عن نقد النقد، فالإنسان ميال بطبعه إلى رفض أي نوع من الممارسات الفكرية ذات نزعة تعليقية، تنطوي على نغمة قبول أو رفض أو إظهار القدرة على قدرة سابقة، وما إلى ذلك من الأساليب المحسوبة عرفا على النقد.

إنّ نقد النقد كمصطلح برز في عالم الأدب في القرن العشرين، وكل من حاول من الدارسين التصدي لهذا المصطلح إلا وعرفه بالشكل الذي يتناسب ودراسته، أو استعمله دون تعريفه لذلك فهو مجرد" مشروع يصعب تحديده وتعريف وظيفته ومقاصده"[3]، بينما يذهب **حميد الحميداني**إلى اعتباره" نقدا في مستوى آخر من الممارسة النقدية" [4]، يعني أنه نقد لكنه مختلف،واختلافه نابع من طبيعة موضوعه، ولذلك فهو في تحديده له يعتمد أساسا على تجنب الخلط بينه وبين النقد الأدبي،وذلك لأن" نقد النقد مرتبط بنقد الإبداع لا بالإبداع ذاته"[5].

هذا التفريق يجعل نقد النقد معرفة مستقلة بنفسها مكتفية بذاتها، فهو حسب **محمد الدغمومي**" بناء معرفي وظيفي يعمل باستراتيجية واحدة وينتج معرفة تصب في مجرى المنهجيات"[6]

وطبعا هذه الاستراتيجية تختلف كليا أو جزئيا عن باقي أشكال التفكير الأخرى، فهي لا تعمل" باستراتيجية التنظير أو النظرية الأدبية أو النقد"[7].

إنّ المدقق في هذا التعريف يجد أنه تمّ الفصل ليس بين نقد النقد والنقد الأدبي فحسب كما ذهب إلى ذلك حميد الحميداني، وإنما أيضا بينه وبين التنظير النقدي، والنظرية الأدبية، واستراتيجيته تقتصر على " معرفة طبيعة الممارسة النقدية (آلياتها، مبادؤها، غاياتها، معرفتها)"[8]، وهذا يعني أنه كيان معرفي مؤسس وجديد، يتمثل لنا كنموذج ينبني على أسس وعناصر نظرية وأخرى إجرائية.

يسعى نقد النقد بحسب التعريف السابق أن يكون علما أو على الأصح معرفة علمية خاصة تتولى التفكير في الطريقة التي يتم بها التفكير في الأدب، فهو يروم أن يكون ابستيمولوجيا جهوية، أو ابستيمولوجيا فرعية، حسب الباحث **محمد الدغمومي**، ويرجع طابعه الابستيمولوجي هذا إلى كون موضوعه يعني النقد الأدبي، تفكير علمي ومعرفي.

إنّ اتخاذ النقد الأدبي كمجال اشتغال لنقد النقد، إنما يتقاطع في هذا مع الكثير من الدراسات التي تتناول تاريخ النقد وتطور الأفكار النقدية، والتي تنتهج تقسيم أشكاله إلى عصور واتجاهات أو مذاهب، والتمفصلات التاريخية الكبرى التي عملت عليه[9].

بعد هذا يمكن القول بأن نقد النقد هو تفكير معرفي، وجد أصلا لتتبع النقد الأدبي ومدار حركته وطرق اشتغاله، وهذا ما يسمح له بتوسيع أفق عمله عبر رصد الحركات النقدية ومرجعيتها ونظرتها للعمل الأدبي، وعليه سيكون ناقد النقد ملزما بتفحص الفكر النقدي على اختلاف مشاربه وتياراته.

2- نقد النقد - من خطاب التنظير إلى سؤال الآليات- :

لما كان خطاب التظير في الخطاب النقدي العربي المعاصر حديث النشأة والتناول، في ظل نداءات من النقاد العرب إلى الارتماء في أحضان الممارسة كجانب مهم في تفعيل هذه المقولات النظرية، وتوسيع مجالاتها التصويرية وإمكاناتها التحليلية والتفسيرية، إذ نجد الناقد **حسين مروة** يصرح قائلا:" نحن بحاجة إلى ممارسات نقدية، لا إلى نظريات في النقد وعظية، لنكتب النقد، ولنترك الآن مهمة تحديد أصول النقد ومنهجه وواجبات الناقد ما عليه أن يقول وما عليه أن يدع ...يوم يصبح عندنا إنتاج نقدي، يصبح بإمكاننا أن نستنتج كل هذه المقولات النظرية وبشكل أصدق"[10]

إن ما ينقص الفكر النقدي العربي هو الاشتغال على مستوى نظرية نقدية عربية، تحمل خصوصية هذا المثقف العربي، نابعة من سؤال الذات، والإدراك بحجم المسؤولية الملقاة على النخبة المثقفة، وعليه فإن " مهمة الفكر النقدي هي مهمة تقويمية، تصحيحية،

ثورية، والعقل العربي في الكثير من مراحله لم يتقبل مهمات كهذه على مستوى التغيير في البنية وفي النمط، العقل العربي عموما هو عقل التقليد والنقل والتشكل والقبول، وكل خروج على هذه النمطية في السلوك هو أمر مرفوض أصلا في الشكل وفي الجوهر"[11]

ومما هو مؤكد أن خطاب التنظير في النقد العربي المعاصر، بدأ يتزايد بشكل ملحوظ في السنوات الأخيرة، وهذا نتيجة الاطلاع والتعرف على المنجز الغربي في مجال التنظير المعرفي والتطبيق المنهجي، كما ارتبط بمسائل النقد ونقد النقد سؤال الآليات والمنهج، والبحث عن الكيفية التي تبناها الناقد العربي عموما والجزائري خصوصا لتحويل المنهج من أسس وقواعد جامدة إلى آليات وتقانات متحركة، للخروج من حيز النظرية إلى حيز التطبيق العملي، حيث يختلط المنهج مع النص الأدبي بانسجام وتآلف كونا نصا ثانيا قائما على النص الأول، ونصا ثالثا على النص الثاني متمثلا في النقد كنص ثان على نص أول، ونقد النقد كنص ثالث على نص ثان في علاقة تعالقية تراكبية[12].

إنّ إدراك الجوهر في العلاقة بين النظرية والآلية يقود إلى تصنيف الكتابات الميتانقدية المشتغلة أساسا في تقديم الحقول المعرفية والأصول النظرية لنقد النقد، خاصة إذا علمنا بحداثة المشروع المعرفي في النقد العربي المعاصر، كما أنه لا يوجد تقريبا مصنف تفصيلي لمبادئ وأسس هذا المشروع، وإنما كتابات وحفريات مبثوثة أحيانا في طيات الممارسات النقدية، يعود إليها الناقد متى وجد الحاجة إليها لتأكيد قضية او لتفنيد مسألة، برغبة مسكونة بثقافة الاختلاف، وعليه فعمل كهذا " أشبه بورشة عملية لاختبار وتجريب المناهج وطرائق القراءة والتحليل"[13]

وبناء عليه فخطاب التنظير والآلية يكمل أحدهما الأخر في عملية القراءة الواصفة أو الشارحة لعملية النقد، والتي ستكون منصبة حول إظهار المعالم الكبرى والجزئيات النوعية في تكوين الرؤى الميتانقدية المتحكمة في تشكيل الخطابات الواصفة، النظرية منها والإجرائية، ويتعلق الأمر بإظهار:

- **الجوانب النظرية والمنهجية**: ينصب هنا على أساس النظرية والمنهجية التي اعتمدها الناقد,

- **نظام التأليف:** يقوم هذا المستوى على عمليتين: استخلاص البنية، من خلال تحديد (الملامح المميزة) للنص المدروس، ثم تحديد المتن الذي اشتغل عليه الناقد.

- **نظام الوصف:** يتعلق الأمر هنا بالكشف عن العلميات التي خضع لها النص الإبداعي المدروس، لتكييفه مع المنطلقات النظرية والتصورات القبلية للناقد.

- **نظام الاستدلال والبرهنة:** ينصب الاهتمام على الأداة الحجاجية للناقد بهدف الكشف عن ميكانيزمات التدليل والمحاجة التي يعتمد عليها في عملية الإقناع[14]

3- في كيفية اشتغال نقد النقد في الخطاب النقدي الأدبي الجزائري المعاصر - تجربة عبد المالك مرتاض أنموذجا- :

معروف على الناقد **عبد المالك مرتاض** اشتغاله بميدان النظرية خاصة من خلال رباعيته المشهورة: (نظرية النص، نظرية الرواية، نظرية القراءة، نظرية النقد)، وذلك لضروريات علمية وغايات معرفية وأهداف بيداغوجية، ولعل اهتمامه هذا كان أساسه هم معرفي، سكن الباحث منذ سنواته الأولى في البحث والتدرج العلمي، إذ لا ينبغي الحديث عن المنهج النقدي دون تقريش نظري يكون بمثابة دليل معرفي للناقد في خوض غمار الممارسة التطبيقية للمناهج النقدية.

لكن هذا التقريش النظري سببه التأثر بالمنجز الغربي بالمنجز الغربي وبجهود المنظرين الغربيين من أمثال **رولان بارث وتودروف** وغيرهم، إذ " كلما طرحنا سؤالا منهجيا أو معرفيا، أو إجرائيا أو جماليا أو فنيا ... حاولنا أن نظفر بالإجابة عنه في قراءة المظان المختصة، وهي في جمهورها أجنبية وبلدانا نجمع طوامير نسجل فيها الملاحظات والآراء من حول الإشكاليات التي نقرا عنها"[15]

مع هذا البيان المنهجي من الناقد عبد المالك مرتاض، وبيان تأثره الصريح بمبادئ النقاد الغربيين في توضيح العديد من المسائل والقضايا النقدية، في ظل واقع نقدي عربي متأزم، وقد حاول الناقد **حبيب مونسي** في أثناء حديثه عن هواجس الكتابة والتنظير في أعمال عبد المالك مرتاض الحديث عن " وجود رغبة أكيدة لدى الباحث لتنظير بعض الإجراءات والمفاهيم، وكان هذه المحاولة تختزن في صلبها ارادة التحول عما هو جار بين المثقفين، لأنه لا حاجة البتةإلىإعادة اجترار القول بل هو مصادرة للمطلوب وثرثرة مشينة، لكن إعادة النظر في الظاهرة الأدبية وتفصيل القول في بعض عناصرها بما يناسب شخصية الباحث، وذوقه وموقفه الجمالي، تجري في مضمار التحول مهما كانت قيمة التنظير الجديد، ومهما كانت فاعليات أدواته"[16]

وقد أقر مرتاض بوجود مثل هذه الأزمات والعوائق الابستيمولوجية التي تحول دون تحقيق المستوى المطلوب من التنظير النقدي والتحليل المنهجي النابع من صميم التفكير العربي، والحائل دون تقديم بدائل ميتانقدية تخلص النقد العربي المعاصر من الوضع الذي هو عليه، وذلك في سياق جوابه عن أسئلة النقد.

ولعلّ المتأمل في متن كتاب (نظرية النقد، متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها، يقف عند النمط الاستدلالي الاستنباطي، الذي حاول عبد الملك مرتاض أتباعه وتأسيسه، من خلال مشروعه النقدي المتمركز أساسا حول معرفة جوهر العلاقة بين الكتابة والقراءة، سواء على مستوى القاعدة البنائية الأولى (كتابة الأدب قراءة النقد) " أو كتابة الكتابة أو لغة اللغة والمصطلحين الاثنان الأخيران من اقتراحنا آوMétalangage كما يعبر عن ذلك الفرنسيون" [17]

ويقدم الناقد جملة من التساؤلات والإشكالات التي تخص جوهر العملية او الحادثة المنتجة للأثر الشارح أو الخطاب الواصف" ما الدوافع التي تحمل الكتاب على أن يدبجوا حولها هذا الكلام، آو هذا " التعليق" الذي يطلق عليه في لغة النقد الحداثي، لا الحديث (الحداثي ينصرف إلى الصفة، والحديث ينصرف الزمن) مصطلح الكتابة الواصفة"[18]

تؤسس هذه الانطلاقة الإشكالية لكينونتها المعرفية، بوصفها قراءة واصفة، تمارس آليتي التعليق والتعقيب في إطار مسعى عام لمعرفة السمات المرئية وغير المرئية المتحكمة في هذا البناء التفاضلي بين عالم النقد الأدبي وفضاء نقد النقد. فغالبا ما تستدعي هذه السمات آليات الشرح والوصف والتعليق، لمعرفة النسق التصوري لعالم الكتابة (الداخلي) وتمظهره على البناء الخارجي (البراني).

لعلّ الغاية القصوى لخطاب نقد النقد سواء من جانب التنظير او الممارسة" هي اهتداء السبيل إلى حقيقة النص، بتعبير فلسفي، أو فهمه بتعبير التأويلية (hermeneutique) الغادامرية (نسبة إلى هانس غادامار) والى تفسيره بمصطلح علماء التفسير، والى اكتشاف علاقة الدال بالمدلول بتعبير اللسانيين البنيويين، أو الكشف عن نظام الإشارة فيه بتعبير السيميائيين، والى تقويضه آو تفكيكه بمصطلح الدريديين(نسبة إلى دريدا) فالغاية من النقد كما نرى تختلف باختلاف الاتجاهات الفنية والتيارات الفكرية"[19].

مع هذا الاختلاف والتعدد في المنطلقات والاتجاهات والتيارات جعل عبد المالك مرتاض يقدم بديلا معرفيا قادرا على احتواء هذا الوضع ويساهم في إثرائه بفتح مساحات جديدة في النظر والتطبيق والتجريب، والبحث دائما عن الجديد والمتجدد، الذي هو مصطلح القراءة " إن بذور القراءة –نشاطا قائما وراء النقد- تتخلق في صلب علمية الدمج الواسعة

التي تتخطى حدود الأثر ونظامه الرمزي إلى نظام يؤممه ويصبغ عليه مسحة جديدة، تتعدد بتعدد المسؤولين، وتتجاوز مهمة الناقد القصدية القائمة وراء الحرفية والدلالة الأحادية"[20] وتحت وطأة هذا الاختلاف بين النقد والقراءة تتجلى رؤية الناقد التنظيرية خاصة، وهذا لمد جسور الائتلاف بين هاذين المعادلين في القضية، وذلك بإدخال معطيين معرفيين لطالما احدثا الفارق المنهجي في تحديد مفهوم القراءة والنقد، وهما التعليق والتأويل، فالأول يحيل على الأول والثاني يتأسس على إحالة الثاني[21]، ومن هنا تأتي قيمة خطاب نقد النقد عند مرتاض في تحقيق هذا التبادل العلائقي بين الأطراف المتخاصمة والمتنافرة والتي لطالما أحدثت خلخلة في بناء النظرية النقدية المعاصرة.

يعدّ التنظير النقدي عند عبد المالك مرتاض هاجسا من هواجس الكتابة الميتانقدية، والذي نجده يقدم جملة من التأصيلات المنتجة لبعض التمثلات المعرفية لتوصيف هذا النوع من الكتابة(نقد النقد)" فهو النشاط النقدي الذي كان شائعا في الحقيقة، في جميع الآداب الكبرى مثل: الأدب الإغريقي واللاتيني والعربي القديم، حيث نصادف منه أطرافا صالحة وفي مستويات معينة، ولقد كان سرج دوبروفيسكي اقترح مصطلح نقد النقد ربما لأول مرة، وذلك في مقدمة كتابه" لماذا النقد الجديد؟" حيث قال بالحرف(une critique de la quritique) ويبدو أن طودوروف إنما جاء بعد دوبروفيسكي، فأطلق هذا المصطلح على كتاب نشره بهذا العنوان، وواضح أن العرب كانوا يعرفون هذا الضرب من التعبير العلمي، وخصوصا المتكلمين منهم"[22]

عمد عبد المالك من خلال هذا التعريج التاريخي لاستعمال مصطلح نقد النقد في الثقافة الإنسانية، التي عرفت صنوفا متنوعة من هذه الممارسات المعرفية، التي تحمل في أساسها معنى التعقب والتعقيب والتعاقب والتغير والتغيير والمشاركة والمحاورة، عبر مماحكة فعلية تبحث فيما وراء اللغة النقدية أو بعدها، غير أن عبد المالك مرتاض يعترض على مثل هذه الصيغ الإضافية لجنس النقد" ونصل هنا إلى صلب المعضلة الاستعمالية فنتساءل: هل نقول للغة الثانية" ما وراء اللغة" أو " ما بعد اللغة" وهو الاستعمال الجاري؟ وهل اللغة الثانية شيء يقع خارج إطار اللغة الأولى حقا؟ وما معنى أننا نتحدث عن نقد، أو عن لغة نقد، بنقد على هامشه، اة من حوله، فنفضل الثاني عن الأول باستعمالنا مصطلح " ما وراء"؟ وهل إذا تحدث ناقد محترف، عن ناقد محترف آخر، نقدم نحن على عدّ عمل الثاني منفصلا عن عمل الأول؟أم عبارتا: " ما وراء"، و" مابعد" شيئا غير ذلكما؟ أم يجب أن نبحث عن إيجاد معادل لهذا التعبير، أو مقابل لذلك المعنى بمصطلح آخر؟"[23]

إنّ مثل هذه التساؤلات هي في الحقيقة من صميم عمل المنظر الذي يبحث في معضلات الاستعمال وصعوبات التداول، من أجل الاقتراب من جوهر العلمية النقدية و الميتانقدية، هذه الأخيرة التي فصل فيها عبد المالك مرتاض الحديث في الفصل السابع من كتابه في نظرية النقد، هذا العمل الميتا نقدي الميتا معرفي، بحث في أصول نقد النقد عند العرب القدامى والمحدثين، وتجارب بعض النقاد الغربيين المعاصرين(رولان بارت، تودوروف)، فاشتغل الباحث كثيرا على حدود المصطلح النقدي وبأصوله التاريخية واستعمالاته المعرفية، وربما هذا ما أبعده عن تقديم مفهوم جامع لنقد النقد، يرسم معالم المعالجة الميتانقدية وكيفية اشتغال اللغة الواصفة على النصوص النقدية، فاكتفى بتحديد معنى النقد في المعرفة النقدية العربية واستعمالات مصطلح نقد النقد في الفكر العربي " الذي يكتب عن بنية الغمر والتهجين وبدافع النعي والتنقيص، وهو أمر غير وارد في أصل المفهوم الغربي القائم على استعمال السابقة الإغريقية التي تعني الاحتواء والايعاء، أو المجانبة والمهامشة، دون أن تعني، على وجه الضرورة، كبير عناية بتسليط الضياء على النقائص المنهجية، والضحالة المعرفية، والغثاثة التي قد تعتور أفكاره، والضحالة التي قد تقارف نظرياته، والتي يمكن أن تقوم عليها أصول نزعة نقدية ما"[24]

كما اعترض عبد المالك مرتاض عن ممارسات نقد النقد في النقد النقد العربي المعاصر، التي غالبا ما تنحصر في إبداء المعارضة لموقف نقدي على نحو ما، دون أن يتسامى إلى البحث فيأصول المعرفة النقدية على نحو منهجي عميق" وإلقاء مزيد ضياء على أصول المذهب النقدي وتبيان أصوله المعرفية، وتوضيح الخلفيات التي تستمد منها مرجعياته: على المستويين المعرفي والمنهجي جميعا"[25]

أشار عبد المالك مرتاض إلى وضعية نقد النقد في التحليل المنهجي المعاصر، فالمدقق حسبه سيجد ممارسة دون تصريح بموضوع نقد النقد، إلا من عمل تودوروف في كتابه المترجم " نقد النقد"، وإلا فان جميع الكتابات التي تتناول نظرية نقدية ما، أو منهج نقدي وحضوره في ثقافة ما، وتجربة نقدية لناقد ما ، بكمن أن تدرج جميعا ضمن اختصاص هذا الحقل المعرفي الذي يثبت جدارته يوما بعد يوم في الساحة النقدية المعاصرة.

ولمّا كان هذا الموضوع من الناحية النظرية مجالا واسعا، وغير مضبوط بحدود زمكانية ومؤسساتية ونظرياتية، فإنّ الناقد مرتاض يرشح اربع تجارب نقدية رائدة في هذا المجال المعرفي، فاختار تجربة الجرجاني من القدماء، وطه حسين من المعاصرين، ومن

تجارب النقد الغربي، اختار تجربة رولان بارت وتزفيتان تودوروف في نقد النقد، واستوقف الناقد في استعراض هذه التجارب العديد من الملاحظات والتعليقات الميتا نقدية نوردها كالآتي:

- كيف يمكن للنقاد أن يمارسوا نقد النقد، ما دامت هناك شكوك وادعاءات بعدم وجود نقد أدبي عربي قديم، في حين أن الأروبيين يقرون بفضل النقد القديم على حركة النقد الأدبي العالمي، سواء العربي الخالص أو المتأثر بالثقافة اليونانية.

- تنحصر رؤية عبد العزيز الجرجاني لنقد النقد من خلال الردود والاعتراضات على نقاد أبي الطيب المتنبي، وتقليب النظر في وجهات النقد لسر صناعة الشعر عند المتنبي في كتابه " الوساطة بين المتنبي وخصومه" وفق رؤية حضارية تجمع بين النقد ونقيضه وتركيزه على عنصر الاحتجاج في تأسيس النقد ونقد النقد.

- يستعرض عبد المالك مرتاض تجربة طه حسين في نقد النقد في اعتراضه على كتب عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم في مقال له :خصام ونقد، بعنوان "يوناني فلا يقرأ" من حيث أمران:

- وضوح الرسالة بين الباث والمتلقي، من جهة العوامل المساعدة على عملية التلقي والتأويل و التقويل أحيانا.

- قضية الصراع بين القديم والجديد.

وهذا الأمر نجده قد حصل بعد عرض علمي رصين لمواطن الاختلاف بين الرؤى المتصارعة والمرايا المتعارضة بين طه حسين وعبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم ومعرفة موطن الخلل " ولعل من اجل ذلك لا نتنبأ لنقد النقد العربي إلى المستوى المعرفي الرصين، إلا إذا رقي النقد العربي إلى مستوى تأسيس النظريات وفي انتظار أن يكون شيء من ذلك مستقبلا، فان نقد النقد قد يظل محكوما بطبيعة مستوى النقد الأول"[26]

- ممارسات رولان بارت النقدية المتنوعة، أهلته لمسايرة حركة النقد العالمية والتنظير لبعض القضايا النقدية، والتي يمكن أن تنطوي تحت لواء نقد النقد، وذلك من خلال استعراضه لوضعية النقد الجامعي في فرنسا، وعلى مرتكزاته الوضعية الموروثة عن لانسون والنقد القائم على اصطناع التأويل، وتأثير النقد الإيديولوجي وتوجهه لمسار النقد في فرنسا والعالم الغربي بصفة عامة.

- يعد تزفيتان تودوروف من أوائل من اصطلح " نقد النقد" جهرا وصراحة، وأسس لحدود النقد الذاتي للنقد الأدبي، من خلال نقد الشكلانيين الروس ونقده لنقاد مشهورين في

العالم في قضايا مطروحة للنقاش والحوار، (اللغة الشعرية، الملحمة، المشترك الإنساني، المعرفة والالتزام، الحوارية).

- يتوج الناقد تنظيراته لخطاب نقد النقد في جعله حقلا معرفيا مكملا" للنقد ومدئ من طوره، وضابط لمساراته، فكما أنه كان للمبدعين من السادين والشعراء نقاد ينقدونهم، فقد كان يجب أن يوجد نقاد كبار ينقدون أولئك الذين ينقدوذ وأن نقد النقد ليس بالضرورة أن يكون اختلافا مع المنقودين، ولكن من الأمثل له أن يكون إضاءة لأفكارهم، وتأثيلا لمصادر معرفتهم وتجذيرا لأصول نزعاتهم النقدية، فهو إذن تأصيل وتثمين، أكثر مما يجب أن يكون تقريضا مفرطا، أو نعيا قاسيا، ونحن نعتقد أن وظيفة نقد النقد لا تقل عن أهمية وظيفة النقد نفسها، من أجل كل ذلك، نرى أن نقد النقد سيزدهر ويتطور حتما نحو الأفضل، ما ظل النقد الأدبي نفسه يتطور، هو أيضا نحو الأفضل"[27]

بناء على ما سبق يمكن أن نحدد وظيفة نقد النقد عند عبد المالك مرتاض، في تقعيد شؤون النقد الأصلية ومعرفة الأنساق المتحكمة في عملية التأهيل المنهجي والتأصيل المعرفي والتثمين القيمي، وصرف النظر عن التقريظ المفرط، والنعت المقوّض لكل محاولات التجديد والإبداع، والاهتمام بتطوير النقد وآليات القراءة النقدية عبر المراجعة الداخلية والمثاقفة الخارجية مع المناهج الغربية لكل وعي ومسؤولية.

تجدر الإشارة أخيرا إلى أنّ مجموع الدراسات والأقلام النقدية الجزائرية التي تصدت لتقييم التجربة النقدية لعبد المالك مرتاض، خاصة مع الناقد يوسف وغليسي في كتابه الخطاب النقدي عند عبد المالك مرتاض يقول:" وبذلك كان مرتاض ناقدا غربي المنهج، عربي الطريقة... حداثي المادة، تراثي الروح"[28]، وقد تطرق فيه الباحث لخطاب المنهج وإشكالاته عند مرتاض، من استعارته للآليات المنهجية الغربية، وطموحه في استثمارها في قراءة النصوص الإبداعية العربية بطريقة ورؤية حداثية وبصيغة تراثية خالصة، أما الدراسة الأخرى فكانت للناقد حبيب مونسي التي حملت عنوان: فعل القراءة، النشأة والتحول-لا مقاربة تطبيقية في قراءة القراءة عبر أعمال عبد المالك مرتاض، حيث قدم فيها مونسي العديد من المواقف والصور النقدية والاجتهادات التنظيرية والممارسات التطبيقية في ميدان القراءة الأدبية والنقدية على حد سواء، تتخاصم فيها قيم الأصالة مع دعاوى الحداثة لتنتج فعل القراءة.

إنّ نقد النقد أو قراءة القراءة عند مرتاض تفتح مسارات جديدة في النقد والتأويل، تؤكد على الارتباط الوثيق بين قيم الأصالة والتراث ومناهج الحداثة والتحديث،

وفق رؤية خاصة، منغلقة تارة على الذات الناقدة العارفة بخصوصياتها (اللغوية والثقافية...) منفتحة تارة أخرى على المنهجية الغربية، انفتاح مؤسس لمثاقفة وحوارية معرفية متميزة.[29]

خاتمة:

- على الرغم من الجهود الحثيثة التي حاولها نقادنا العرب عموما والنقاد الجزائريون خصوصا في هذا المجال المعرفي، تبقى وضعية نقد النقد في الخطاب النقدي العربي تعتريها حالة من الضبابية والتبعية للثقافة الغربية، بالنظر إلى الوضعية الابستيمولوجية المعقدة للنقد المعاصر، وانعدام مؤشرات إنتاجية تصلح للوصف والشرح والتعليق والتعقيب/ ما يجعل مهمة ناقد النقد تتسم بالغموض وصعوبة تقديم آليات واصفة لهذه الممارسة النقدية.

- يشكل خطاب التنظير لنقد النقد عند عبد المالك مرتاض محاولة جادة في وضع التصورات الصحيحة وتحديد المنطلقات المعرفية الضرورية لاقتحام شروط الممارسة التطبيقية لخطاب نقد النقد.

- سيكون على عاتق النقاد أن يقفوا مليا عند نقد النقد، لأنه البوابة الصحيحة لغرس قيم النقد الحقيقة في المجتمعات العربية، وجعلها قيما معرفية ترقى إلى مستوى العلمية، وكل هذا من اجل إثراء الحقل الفكري العربي وتطوير قدرات الإنسان العربي معرفيا وثقافيا.

قائمة المراجع المعتمدة:

1- عبد الحكيم الشندودي، نقد النقد- حدود المعرفة النقدية- إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2016م، ط1.

2- تزفيطان تودوروف، نقد النقد، ترجمة سامي سويدان، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، 1986م، ط1.

3- محمد الدغمومي، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، منشورات كلية الآداب بالرباط، المغرب، 1999م، ط1.
4- حميد الحميداني، سحر الموضوع، منشورات دراسات سال، المغرب، 1990م، ط1
5- يمنى العيد، ممارسات في النقد الأدبي، دار الفرابي، بيروت لبنان، دت، دط.
6- ساسين عساف، دراسات تطبيقية في الفكر النقدي الأدبي محورها الروية والرؤيا، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، 1991، ط1.
7- نرجس خلف أسعد داوود، النظرية النقدية والتداخل المنهجي، مناهج نقد الشعر في مجلة عمان، دار فيداء للنشروالتوزيع، عمان الأردن، 2013م، ط1
8- محمد مريني، السرديات البنيوية في النقد المغربي الحديث، عالم الفكر، م38، ع3، جانفي-مارس، 2010م.
9- عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب الكويت، ع240، ديسمبر1998م.
10- حبيب مونسي، فعل القراءة، النشأة والتحول، مقاربة تطبيقية في قراءة القراءة، عبر أعمال عبد المالك مرتاض، منشورات دار الغرب، وهران، 2002م، د ط.
11- عبد المالك مرتاض، نظرية النقد، متابعة لاهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها، دار هومة، الجزائر،2002م، دط.
12- حبيب مونسي، فلسفة القراءة وإشكاليات المعنى- من المعيارية النقدية الى الاتفتاح القرائي المتعدد-، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، دت، دط.
13- عبد المالك مرتاض، نظرية القراءة –تأسيس للنظرية العامة للقراءة الادبية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران الجزائر، دت، دط.
14- يوسف وغليسي، خطاب النقد عند عبد المالك مرتاض، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، دار البشائر للنشر والاتصال، الجزائر، 2002م ،ط1.

الإحالات:

[1]- عبد الحكيم الشندودي، نقد النقد- حدود المعرفة النقدية- إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2016م، ط1، ص5

[2]- تزفيطان تودوروف، نقد النقد، ترجمة سامي سويدان، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، 1986م، ط1، ص16.

[3]- محمد الدغمومي، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، منشورات كلية الآداب بالرباط، المغرب، 1999م، ط1، ص113.

[4]- حميد الحميداني، سحر الموضوع، منشورات دراسات سال، المغرب، 1990م، ط1، ص06.

[5]- المرجع نفسه، ص07.

[6]- محمد الدغمومي، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، ص52.

[7]- المرجع نفسه، ص52.

[8]- المرجع نفسه، ص52.

[9]- عبد الحكيم الشندودي، نقد النقد- حدود المعرفة النقدية-، ص18.

[10]- يمنى العيد، ممارسات في النقد الأدبي، دار الفرابي، بيروت لبنان، دت، دط، ص05.

[11]- ساسين عساف، دراسات تطبيقية في الفكر النقدي الأدبي محورها الروية والرؤيا، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، 1991، ط1، ص، 09.

[12]- نرجس خلف أسعد داوود، النظرية النقدية والتداخل المنهجي، مناهج نقد الشعر في مجلة عمان، دار غيداء للنشروالتوزيع، عمان الأردن، 2013م، ط1، ص23.

[13]- محمد مريني، السرديات البنيوية في النقد المغربي الحديث، عالم الفكر، م38، ع3، جانفي-مارس، 2010م، ص319.

[14]- المرجع نفسه، ص338.

[15]- عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، ع240، ديسمبر1998م، ص07.

[16]- حبيب مونسي، فعل القراءة، النشأة والتحول، مقاربة تطبيقية في قراءة القراءة، عبر أعمال عبد المالك مرتاض، منشورات دار الغرب، وهران، 2002م، د ط، ص78.

[17]- عبد المالك مرتاض، نظرية النقد، متابعة لاهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها، دار هومة، الجزائر،2002م، دط، ص06.

[18]- المرجع نفسه، ص06.

[19]- المرجع نفسه ، ص51.

[20]- حبيب مونسي، فلسفة القراءة وإشكاليات المعنى- من المعيارية النقدية الى الاتفتاح القرائي المتعدد-، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، دت، دط، ص135.

[21]- عبد المالك مرتاض، نظرية القراءة –تأسيس للنظرية العامة للقراءة الادبية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران الجزائر، دت، دط، ص15.

[22]- عبد المالك مرتاض، في نظرية النقد، ص53.

[23]- المرجع نفسه، ص222.

[24]- المرجع نفسه، ص227.

[25]- المرجع نفسه ، ص227.

[26]- المرجع نفسه ، ص243.

[27]- المرجع نفسه ، ص 253-254.

[28]- يوسف وغليسي، خطاب النقد عند عبد المالك مرتاض، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، دار البشائر للنشر والاتصال، الجزائر، 2002م ،ط1، ص08.

[29]- حبيب مونسي، فعل القراءة النشأة والتحول، ص07-09.